٥ ــ العمارة الداخليّة:

الجذور التاريخية وتأكيد الانتماء

م. محمد مهيب

طالما دأب الإنسان على البحث عن العقيدة بشتى صورها، ومظاهر قوتها، وخبايا المجهول فيها، ومع ارتقاء الفكر البشري؛ كان الاتصال المباشر بين الخالق والبشر بواسطة رسله وتنزيله الرسالات المتعاقبة، وصولاً إلى خاتم الرسل وتمام الرسالات وكمالها بالدين الإسلامي الحنيف في القرن السابع الميلادي، وما تمّ بعد ذلك من فتح إسلامي لمصر بدخول القائد «عمرو بن العاص» إلى مصر في عصر ثاني الخلفاء الراشدين الفاروق «عمر بن الخطاب» عام ٢٠ هـ/ ٦٤٠م، وتمّ بعد ذلك تشييد أول صرح في العمارة والحضارة والفنون الإسلامية؛ ألا وهو مدينة الفسطاط وبها جامع عمرو بن العاص [مسجد أهل الراية] وحفر خليج أم المؤمنين، ومقياس للنيل. وتعاقب الولاة على مصر حتى قيام الدولة الأموية عام ٤٠هـ/ ٦٦١م، ولم يغيّر تعاقب الولاة الوضع في مصر حتى عهد ولاية «عبد الله بن عبد الملك بن مروان بن الحكم» الذي أمر بنسخ الدواوين باللغة العربية.

وعند سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠ م تولى بنو العباس مقاليد الخلافة في الدولة الإسلامية، منذ هذا التاريخ حتى عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م بعد تعاونهم مع العلويين وغيرهم لإسقاط الدولة الأموية. وقد لا نجد آثارًا أكثر أهمية للعصر الأموي مما ذكر.

أسس العباسيون مدينة بغداد الحالية على ضفة نهر دجلة، واتخذوها

عاصمة لهم. وتوالى الولاة العباسيون على مصر باعتبارها أهم ولايات الدولة وأقواها وأغناها، وأنشأوا مدينة العسكر التي اتسعت والتحمت بمدينة الفسطاط. وفي فترة العباسيين الأُولى نرى أن أهم آثارهم هي مدينة العسكر التي لم يتبق منها أثر يذكر اليوم. وفي عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م تمّ «تعيين أحمد بن طولون» واليًا على مصر من قبل العباسيين حيث تمكن من أن يجعل حكم مصر وراثيًا في أسرته، وكان له شبه استقلال عن دولة الخلافة العباسية. ومن أهم آثاره مدينة القطائع التي تمّ تدميرها بعد ذلك في العصر العباسي الثاني. وكان قد صعد إلى جبل المقطم فرأى بينه وبين العسكر بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة، إلا بعض المدافن للمسيحيين واليهود، فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته الجديدة «القطائع» وكانت حدود القطائع تمتد بين حد الفسطاط الشمالي حيث جبل يشكر، وبين سطح المقطم في مكان عرف آنئذ بقبة الهواء، وفيما بين الرميلة أسفل القلعة إلى مشهد الرأس الذي عرف بمشهد زين العابدين فيما بعد. واتصلت عمارة القطائع بعمارة الفسطاط. وفي عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م تمّ الاحتفال بوضع أساس جامع أحمد بن طولون على جبل يشكر وأنهى تشييده بعد عامين على غرار مسجد سامراء، ويشبهه العلماء الغربيون بالسرج الذي يحتضن الحصان، حيث يحتضن الجامع جبل يشكر، وقد بلغت الرفاهية والإسراف والبذخ في الزخارف قمتها في عهد «خمارويه بن أحمد» حيث كانت الزخارف تتم بالذهب والفضة، والنوافير تملأ بالزئبق.

وعادت السيطرة مرة أُخرى للدولة العباسية، ونتج عنها تدمير لمدينة القطائع في عام٣٠١ هـ/ ٩١٤م، وتمّ نهب الفسطاط التي عادت عاصمة للبلاد بعد القضاء على مدينة القطائع، ثم عمّت الاضطرابات الداخلية والفوضى والمجاعة بسبب انخفاض النيل وتفشي الطاعون في الوقت الذي كانت تقوى فيه دولة الفاطميين بالغرب، وامتدت حدودها إلى ساحل المحيط الأطلسي، فعزم خليفتها المعز لدين الله الفاطمي على تحقيق حلم آبائه بغزو مصر، فجهز حملة بقيادة جوهر القائد، بدأ تحركها من القيروان حتى وصلت إلى مدينة الفسطاط عند غروب شمس يوم ١٧

شعبان ٣٥٨هـ ـ ٦ تموز/يوليو ٩٦٩م حيث بدأ بإنشاء عاصمة مصر الرابعة المنصورية [القاهرة] وذلك ببناء السور وبواباته المعروفة بأسمائها وقصر يليق باستقبال المعز.

وكانت أولى عمائر الفاطميين الدينية جامع الأزهر بعد عامين من الفتح الفاطمي لمصر، وتمّ إنشاء القصور، وأهمها القصر الكبير، مشتملاً على عدة قاعات، وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والأفيال والظفر والشجرة والديوان الكبير، وأهم أبوابه باب الذهب وباب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة، وتمّ بناء جامع الحاكم وقيل له: الجامع الأنور في عهد «العزيز» وبناء أبواب القاهرة الحالية، ومسجد الصالح طلائع آخر الآثار الفاطمية، ومن الآثار الفاطمية: الأزهر ـ جامع الحاكم بأمر الله ـ مسجد الجيوشي ـ جامع الأقمر ـ مسجد الصالح طلائع.

وفي وقت واحد كانت هناك خلافة عباسية عاصمتها بغداد، وخلافة فاطمية في القاهرة، وخلافة أموية في الأندلس، وطمع الصليبيون في الاستيلاء على مصر، وتوالت الأحداث حتى استيلاء «صلاح الدين يوسف بن أيوب» على الحكم في مصر، وأقام الدولة الأيوبية من عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م حتى عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٠م، وبدأت نهاية هذه الدولة بوصول حملة لويس التاسع إلى دمياط عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٠م وموت الملك الصالح، وتولي زوجته شجرة الدر الأمور بعد المبايعة لابنها، واستمر جند الملك الصالح يقاومون الصليبيين حتى أسر ملكهم بالمنصورة، فتقهقر الصليبيون وقبضت شجرة الدر على زمام الحكم بتواطئها مع عز الدين أيبك، وهو من أعظم الأمراء المماليك وأقواهم نفوذًا والذي استقل بعد ذلك بالحكم، وتزوج من شجرة الدر، وقد تمّ قتله، ثم قتل شجرة الدر، وتولى المنصور «نور الدين» الحكم، وما تلى ذلك من الهجوم التتاري على بغداد، وسوء حال البلاد، فبحث رجال الدولة في مصر عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا «نور الدين» وولوا مكانه «سيف الدين قطز» نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر.

ومن أهم الآثار الأيوبية في مصر؛ قبة الإمام الشافعي وجامعه - مسجد السلطان الصالح نجم الدين [المدرسة الصالحية] - ضريح السلطان الصالح نجم الدين - قلعة الجبل - دار الحديث الكاملية - قلعة الروضة - قبة الخلفاء العباسيين - الجامع المنصوري بقبة الجبل - جامع المشهد النفيسي.

ولما تولى سيف الدين قطز السلطنة لقب بالملك المظفر، وبدأ حكم المماليك البحرية لمصر عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، إلى ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م.

ومن أهم الآثار المملوكية البحرية؛ جامع السلطان الظاهر بيبرس - مسجد ومدرسة السلطان قلاوون - مسجد ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون - مسجد سلاروسنجر الجاولي - خانقاه الظاهر بيبرس الجاشانكير - قبة حسن صدقة - جامع الأمير الماسي - جامع السلطان الناصر محمد - جامع المارداني - جامع آق سنقر - مسجد أصلم السلحدار - مسجد ومدرسة الأمير صرغتمش - مسجد السلطان حسن - مسجد ومدرسة السلطان شعبان - مسجد ومدرسة الجاي اليوسفي - وغيرها كثير من القصور والمنازل قائمة في كثير من الأحياء حتى الآن.

وباعتلاء السلطان «الظاهر برقوق» السلطنة وحده انتهى ملك بيت قلاوون، وأنهى دولة المماليك البحرية، وبدأ عصر المماليك البرجية [الجراكسة] من عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م حتى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، حتى تولى السلطان «الغوري» العرش فقام بتشييد المباني العامة الكبيرة وشق الترع، وفتح الطرق، وأقام الحصون على السواحل، ودعم القلعة، وأصلح طريق الحجاج إلى مكة، وشيّد مدرسة الغوري وقبلته، وأقام مئذنة الجامع الأزهر، وشيّد جامع المقياس في جزيرة الروضة، وسبيل المؤمنين في الرميلة، وطواحين للهواء في مصر القديمة، وجدد بناء عيون المياه الموصلة للقلعة، وقد فارقه الحظ السعيد لما خرج في طليعة جيش مصر ليصد جيوش العثمانيين بعد توغلهم في الأراضي السورية فسقط في معركة «مرج دابق» شهيدًا، وتولى الأمر «طومان باي» الذي هُزم في هيليوبوليس، وانتصر السلطان «سليم» واستولى على القلعة، وأمر بشنق

«طومان باي» حيث بدأ الحكم العثماني في مصر.

ومن أهم الآثار المملوكية الجركسية مسجد ومدرسة السلطان برقوق ـ مسجد وخانقاه السلطان برقوق ـ جامع السلطان المؤيد ـ مسجد ومدرسة القاضي عبد الباسط ـ مسجد ومدرسة الأشرف برسباي ـ مسجد وضريح برسباي ـ جامع الأشرف برسباي بالخانكة ـ مسجد ومدرسة الأمير تغري بردي ـ مسجد القاضي يحيى ـ مسجد السلطان إينال وضريحه ـ مسجد السلطان قايتباي وضريحه ـ مسجد ومدرسة أبو بكر مزهر وقبة الفداوية ـ مسجد قحماش الإسحاق ـ مسجد الأمير قحماش اليوسفي ـ مسجد الأمير أزبك اليوسفي ـ مسجد الأمير خاير بك ـ مسجد قانباي أمير أخور ـ مسجد ومدرسة وقبة السلطان الغوري.

ولا نجد من عجائب التاريخ الشرقي أعجب من هؤلاء المماليك في الجمع بين المتناقضات، فبينما نجدهم عصبة من الأفاقين تمّ بيعهم بيع السلع، ونشأوا أرقاء وأصبحوا سفاكين للدماء، ظالمين للعباد، نجد فيهم ميلاً للفنون والعلوم والأدب والدين، ولقد أظهر هؤلاء المماليك في معيشتهم وعمائرهم ذوقًا سليمًا، ورفاهية بالغة، فكان «برقوق» و «المؤيد» و «حقمق» و «قايتباي» مولعين بمجالس العلماء والأدباء. وكان «برسباي» على قلة إلمامه باللغة العربية يصغي إلى تاريخ العثمانيين الذي كان يقرأه له [العيني] وكان الظاهر [تمريغا الرومي] عالمًا بأصول اللغات والتاريخ والتصوف. وكانوا يؤدون فرائض الدين كاملة؛ لا يشربون الخمر، ويحجون إلى بيت الله، وشيّدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية والخانقاوات والبيمارستان والقصور والبيوت، وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلمًا عالمًا وموسيقيًّا بارعًا وشاعرًا وخطيبًا، بسيط الملبس والمعيشة، شيد عمائر جميلة منها جامع المؤيد بقرب باب زويلة وشيّد البيمارستان المؤيدي بالقرب من القلعة. وبنى بارسباي جامعه الكبير المعروف بالأشرفية بالقرب من الموسكي عند منعطف الغورية، وبنى برقوق المدرسة الظاهرية بين القصرين، وشيّد جامعًا فيه مقبرته وله قبّتان وكذلك درة القرافة الشرقية، مسجد وضريح قايتباي [الدرة اليتيمة في العمارة الإسلامية]، وأصبحت هذه الصروح

الشامخة مرجعًا ومنهلاً ننهل منه الآن في منعطفنا التاريخي بتأكيد الشخصية المصرية.

بدأ الحكم العثماني في مصر عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م حتى ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، ورجع مظهر الحكم في مصر بتعيين الولاة من قبل السلطان العثماني في اسطنبول فكان همَّ كل والي إرضاء سيده السلطان باستخدام القهر والظلم، ويعمل على خير وطنه الأم لا مقر ولايته. وقد تمّ نقل الحرفيين والصناع والصناعات الرائدة في مصر إلى اسطنبول حتى إننا نعاني إلى يومنا هذا من نقص وعجز في كثير من الحرف والصناعات بسبب هذه الفترة المظلمة في تاريخ مصر، كما أن الغازي العثماني قد قام بتصدير بعض الحرفيين المصريين الذين قام بالاستغناء عنهم إلى مصر حاملين معهم فكرًا وثقافة عثمانية نعاني منها للآن.

وبالرغم من زوال النفوذ الرسمي للمماليك إبان العصر العثماني، إلا أنهم قد تمكنوا من الإبقاء لأنفسهم على بعض السلطات أدت إلى استئثارهم بالحكم الفعلي لمصر منذ منتصف القرن السابع عشر بعد مضي قرن من الزمان على الغزو العثماني لمصر وهذا يؤكد قوة ونفوذ المماليك في أكثر من عصر [ولا ننسى أن مصر كانت مقرًا للخلافة العباسية في العهد المملوكي]، ولم يمض وقت طويل حتى تلاشت سلطة الولاة العثمانيين، وعظم نفوذ المماليك، واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للمماليك البحرية والجراكسة حتى بداية القرن التاسع عشر بعد انسحاب الحملة الفرنسية من مصر، وتولى «محمد علي» مقاليد الحكم في مصر في ١٧ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٧ مايو ١٨٠٥م، ودخلت مصر في عهده إلى شخصية وفكر واهتمامات جديدة. ومن الآثار العثمانية بمصر؛ مسجد سليمان باشا ـ مسجد المحمودية ـ مسجد سنان باشا ـ مسجد الملكة صفية ـ مسجد البرديني. ومنازل وقصور كمنزل جمال الدين الذهبي ومنزل السحيمي.

وتوالى الحكم العلوي في مصر حتى عصر الخديوي «إسماعيل» عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م، الذي اتجه بالفكر والفن المصري نحو أوروبا، حيث

أنشأ المباني والقصور على غرار الطرز الأوروبية المختلفة، ومن أهم إنجازاته افتتاح السويس ودار الأوبرا المصرية والقصور الملكية، وتوالى السلاطين والملوك في حكم مصر حتى قيام ثورة ذو القعدة ١٣٧١هـ/ تموز/ يوليو ١٩٥٢م وإسقاط النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري بمصر حتى اليوم.

ومن العرض السابق المختصر لأشكال الدول، ونظم الحكم التي توالت على مصر منذ الفتح الإسلامي الأول في القرن السابع الميلادي، نجد أن كل دولة قامت وأنشأت حضارة وفكر وثقافة بمصر كان الغرض الأساسي لها هو خدمة الفاتح وحكامه وقواده، وعندما يتبدل العصر بآخر، يقوم العصر الجديد بطمس وحرق سابقه، ويعمل على السيطرة على خيرات وموارد مصر إرضاء للسلطان بعاصمة الدولة التي تتبعها مصر، وكانت هذه السمة الغالبة على جميع العصور التي مرت بمصر قبل الحكم المملوكي وبعده في العصر العثماني، حيث نجد أن هذه الطفرة المملوكية بدأت في الظهور في أواخر العصر العباسي، وكذا في العصر العثماني مع استرجاع سلطة الحكم في أواخر هذا العصر، وأنهم كانوا المدافعين عن رشيد ضد الغزو الإنكليزي بقيادة فريزر عام ١٣٢٢هـ/ ١٨٠٧م. ومن سخرية القدر أنه كان بالإمكان أن تظل مصر تحت حكم المماليك إلى اليوم لولا مذبحة القلعة الشهيرة التي قام بها «محمد علي» عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، وذلك بالتصفية الجسدية لزمرة المماليك مجتمعين في زمن تاريخي واحد ومكان مختار بشكل يندر حدوثه في التاريخ، حيث قضى فيها على آخر سلطة للمماليك في العصر الحديث.

مما سبق نجد أن أغنى العصور وأكثرها ثراءًا في آثاره، وما تركه لنا من درر جميلة هو العصر المملوكي لما يزخر به من قيم حضارية وفنية وصروح شامخة لم ينل منها لا الزمان ولا وارثوه، سواء بالتخريب أو التغيير أو التبديل، رغم أن رجال دولة هذا العصر قد تواجدوا على أرض مصر سواء بمصاحبة مواليهم، أو عن طريق شرائهم أطفالاً، أو بالتواجد خلال حملات عسكرية، أو ما شابه ذلك، وطبقًا للمقولة التي تقول بأن هناك سحرًا خاصًا بالوطن المصري، حيث يقوم بتمصير كل من وطئ أرضه، فإن هؤلاء المماليك مع اختلاف مصادر نشأتهم قد

أصبحوا مصريين والدماء المصرية تسري في عروقهم، ولا يعرفون لهم وطنًا سابقًا على الوطن المصري، وإذا تذكروا وطنهم الأم فسوف يكون ذلك لصالح مصر حيث يتحيز المملوك لفكره الأصلي، ليصبه في وطنه الحاضن، وهكذا نرى أن جميع الأنماط والأشكال المعمارية التي وردت لمصر خلال جميع العصور منذ الفتح الإسلامي قد تمصرت وتأصلت وأصبح لها جذور قوية تسمح بتصدير فروعها مرة أُخرى باعتبارها نابعة من جذور مصرية، تلك الجذور التي لم نجد مراجع تشبع النفس منها في العصر الأموي أو العباسي أو الطولوني ولا الفاطمي أو الأيوبي غير بعض المنابر أو النوافير أو الميضاء... أما في العصر المملوكي والعثماني الذي يتقرب إلى المملوكي كما تقربت العصور البطلمية في عمارتها إلى العصور الفرعونية. فإن مراجعنا للعمارة الداخلية غزيرة وفيرة، وما زالت كنوزها قائمة نستطيع أن ننهل منها كنبع لا ينضب معينه في المساجد والخانقاوات والمدارس والقصور والبيوت... فيها المنبر ودكة المبلغ والميضاء، وفي البيوت المشربيات والدواليب [أصل البلاكار الحديث] والدكك والمقاعد والطبالي وكرسي الولادة... وغيرها من المراجع.

وبعد مرورنا مؤخرًا بمراحل اجتماعية وسياسية واقتصادية نالت من كيان الإنسان المصري، كان لا بد من وقفة مع النفس لنرى أنه قد عمّ الكثير من الارتجال والفوضى وأخلاق الزحام التي نعاني منها في معظم أوقات حياتنا اليومية، لا سيما في البيت المصري وعمارته الداخلية التي تتنافر ولا تنسجم، تتباعد ولا تتقارب، حتى زكمت عيوننا، واعتدنا القبح، وأصبح الجمال مستغربًا والتناسق مستهجنًا، وفي سبيل السعي وراء لقمة العيش تطأ الأقدام الأصالة وتنتزع الجذور من أعماقها والبقاء لصاحب الصوت الزاعق الجهوري، وبنظرة عابرة لأي شارع تجد العمائر ترتفع وتنخفض، تبرز وتنكمش، تطل بالواجهات الزجاجية أو تغلق بالطوب، بيضاء أو زرقاء، شعارها الحرية النادرة الوجود، وقانون متأرجح غير ثابت. وتهبط المباني على أرصفة هي قمة الفوضى في مناسيبها وحفرها وبلاطها حيث يغرس بها أي مغروسات

أشجارًا كانت أو مواسير لأعمدة إضاءة أو لافتات وكل من يملك ماسورة حديد يمكن أن يغرسها على الرصيف، ناهيك عن أكشاك تحتلها يحمي معظمها تقنين من الدولة، وأخيرًا تسعى السيارات حاليًا لاحتلالها لتصير ملكية خاصة مع مضي الوقت المكتسب.

ولما نصل إلى نهر الطريق نجده يمثل أقصى انتهاك لحقوق الإنسان ولست بحل أن أخوض في تفاصيله، حيث جميعنا يعيش المأساة غير أني لا أستطيع أن أمر به دون أن أشير إلى انتقال المغروسات الحديدية من الرصيف إلى نهر الطريق، حيث طفت على السطح ظاهرة جديدة بوجود مغروسات حديدية يصل بينها جنازير قوية، يؤمنها أقفال مصفحة ليصبح جزء من الطريق ملكية خاصة، شاع ظهورها في السنوات الأخيرة في أماكن متفرقة من أحياء القاهرة، وأصبح ذلك مألوفًا للأعين، وغير مستغرب للأنفس، فقد تعايشنا مع القبح، وتخاصمنا مع الجمال، وإذا حاولت أن تعرف اسم شارع لا توجد لافتة تدل على اسمه، وكذا رقم أي منزل، فالعرف هو أن تسأل، وبعد السؤال تدلف إلى المنزل الذي تبغيه، حيث تقابلك صفائح القمامة على أبواب الشقق التي تعبث بمحتواها القطط الضالة، ولا تجد باب شقة يماثل الآخر أو ينسجم معه وتطأ قدمك الوحدة السكنية تلك الخلية الخاصة بالأسرة المصرية لترى العجب العجاب، فالصالون فرنسي، والسفرة إنكليزي، والمطبخ ألماني، وغرفة النوم دانماركي، وهناك وحدات إضاءة إيطالية والموكيت أسباني مع وجود الستائر السويسري، وقاطوع هندي، والسجاجيد طبعًا شنواه، ولكي يتآلف إنتاج عصبة الأمم هذه لا بد من التوصيل بينها بزينة من الزهور والنباتات البلاستيك في بلد هو في الأصل زراعي كان يحفل بالحدائق والمتنزهات الغنّاء.

وباستعراض ما كان وما أصبح فقد حفرنا في التاريخ حتى عثرنا على التربة الصالحة لوضع أساس للعمارة الداخلية للبيت المصري المعاصر، باجتهاد حتمي ووجهة نظر شخصية، فكان التحيز للعصر المملوكي كأساس يبدأ عنده الهيكل الإنشائي للعمارة الداخلية للبيت المصري المعاصر، مع الاستعانة بكل أنماطه وأشكاله دون العبث

بالتراث، أو باختراع أشكال وعناصر غريبة، والادعاء بأنه تحديث للأصل، واضعين في اعتبارنا أننا نملك اليوم مخترعات وتقنيات القرن العشرين، وأننا على مشارف القرن الواحد والعشرين.

وهنا نشأت لدينا فكرة محاولة إيجاد حل لعناصر العمارة الداخلية، بدءًا من باب الشقة، مرورًا على معظم الوحدات النفعية متمثلة في الأثاث الخشبي والأرضيات والجداريات والمعلقات ووحدات الإضاءة والنسجيات، وما يستخدم من أواني وأدوات لا يستغنى عنها، وقد لا أكون خياليًا إن كنت أطمع في تمصير الزي، والرقصة الجماعية، ولعبة الطفل، والتي تهدف جميعها إلى تأكيد الانتماء؛ أسوة بالمجتمعات العريقة الأصيلة التي مهما تقدمت وأصبحت رائدة في التقنية الحديثة؛ لا تتخلى عن أصالتها وجذورها وتأكيد انتمائها لتراثها.

فبالنسبة للعمارة الداخلية [الخشبية بالذات] فإن فلسفة الحرفي الأصيل، أنه يتعامل مع هذه الخامة من أربع زوايا تتلخص فيما يلي:

١ ـ **القص**: وهو عملية الفراغات التي تشكل بسطح اللوح الخشبي، سواء في نهايات قطع الأثاث، أو بوسطه على شكل القناطر والعقود المختلفة.

٢ ـ **الخرط**: [صورة (١)] وهو التعامل مع الحركة الدائرة لقطاع اللوح الخشبي المربع المقطع، وأحيانًا المستطيل، فينشأ عنه أشكال من النحت منها ما يعرف بالخرط البلدي، وما يعرف بالخرط العربي، وله أشكال وتسميات عديدة، وكان يتم تصنيعه في الماضي عن طريق ما يعرف بالغراب والقوس، أما اليوم فيتم تصنيعه بالموتورات الدوارة.

٣ ـ **الحفر**: ويطلق عليه اسم الأويما، وهو التعامل مع سطح الأخشاب بالحفر الغائري فيها لعمل رسومات للعروق والتوريقات النباتية، ولا يخلو الأمر من حفر آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو قصائد شعرية. ولا يزال هذا الحفر يتم يدويًا بالأزاميل والدقماق.

٤ ـ **الحشوات**: [صورة (٢)، (٣)]، وهو زخرفة السطح

بالأشكال الهندسية المختلفة على رأسها شكل الطبق بأضلاعه الثمانية، ومتوالياته. كذلك المفروكة المعقلي والرضواني، والأشكال الهندسية الأُخرى العديدة المتنوعة والتي كانت تصنع سابقًا بطريقة الجمعية حيث تصنع اليوم ـ وذلك لظروف التقدم الصناعي ـ بطريقة القشر، أي لصق الحشوات على ألواح الكونتر بالغراء والمسمار بما لا يقلل من قيمة العمل الفنيّة.

وتمثل هذه النقاط الأربع الأكثر شيوعًا للتعامل مع لوح الخشب في نجارة الأثاث الحضري. وننتقل إلى نوع آخر من الأثاث الخشبي، وهو النجارة البلدي [صورة (٤)] حيث يصير التعامل مع الأخشاب بفلسفة نجار الأحياء، الذي تعامل مع الطبلية والنملية وكرسي الحمام حيث البساطة في الأشكال وعدم التعقيد في التصنيع.

وهناك نوع آخر كان يعرف بالنجارة السويسي، وحافزي لدراسته، ومحاولة إحيائه؛ هو تحيزي لمسقط رأسي السويس، حيث شاهدت في طفولتي أروع الأعمال الخشبية سواء في الهيكل الإنشائي للمبنى عن طريق العروق الخشبية المكسوة بالمصبعات الخشبية الرفيعة والحشو فيما بينها بمونة الأصرمل والجير والرمل وكسر الحجارة ثم البياض من الخارج بمونة الجير والرمل والأسمنت في بعض الأحيان وبنفس الطريقة في التعامل مع الأسقف، مع وضع ألواح من الخشب فوق العروق، وعزلها، ووضع الرمل والبلاط فوقها. أما الواجهات من الخارج ـ وهو بيت القصيد ـ فكان يبرز منها الشرفات العريضة والطويلة، والقائمة فوق بعضها عن طريق أعمدة من كتل خشبية، يتم نحتها في معظم الأحيان بأشكال إبداعية رائعة، ثم تغلق الشرفات من أسفل شرائح من الخشب، يتم قص جوانبها بأشكال زخرفية بسيطة وجميلة، يعلوها ما يشبه المشربية؛ ولكن تصنع بطريقة مصبعات الخشب الرفيع المتقاطع، وهو ما يعرف بالبغدادلي. وقد دخلت طريقة البغدادلي إلى مدينة السويس أثناء العصر العباسي بمصر لدرجة أننا نجد تشابهًا كبيرًا بين شوارع ومباني بمدينة السويس القديمة تمثل صورة طبق الأصل من شوارع ومباني مدينة بغداد بالعراق، ومن هنا جاءت تسمية البغدادلي نسبة إلى بغداد بالعراق [صورة (٥)].

والنوع الأخير الذي يجري بحثنا فيه حاليًا هو النجارة الريفي، حيث يطلق على النجار بالريف «نجار سواقي» وهو يقوم بتصنيع الساقية والنورج والشادوف والطنبور، وهناك نجار آخر متخصص في عمل الدكة والكرسي، ونجار آخر متخصص في عمل الكالون البلدي؛ وهو ما يعرف بالضبة والمفتاح، وهو كالون مصنع بالكامل بالأخشاب وكذلك مفتاحه [صورة (٦)].

ومن التصنيف السابق فقد قمنا بعمل نماذج للأثاث الحضري والبلدي والسويسي، نستعرض فيه النماذج التي تمّ إنتاجها بالفعل، مرشدنا فيها هو ما استعرضناه من سرد تاريخي، وتحيز ثقافي لعصر بذاته [العصر المملوكي]، مع رفض للفكر العثماني، والفكر الفرنسي الذي ما زال يسيطر على الذوق المصري، والمستغرب من الفرنسيين أنفسهم حيث تطور ذوقهم وواكب العصر بشخصية عالمية!!.

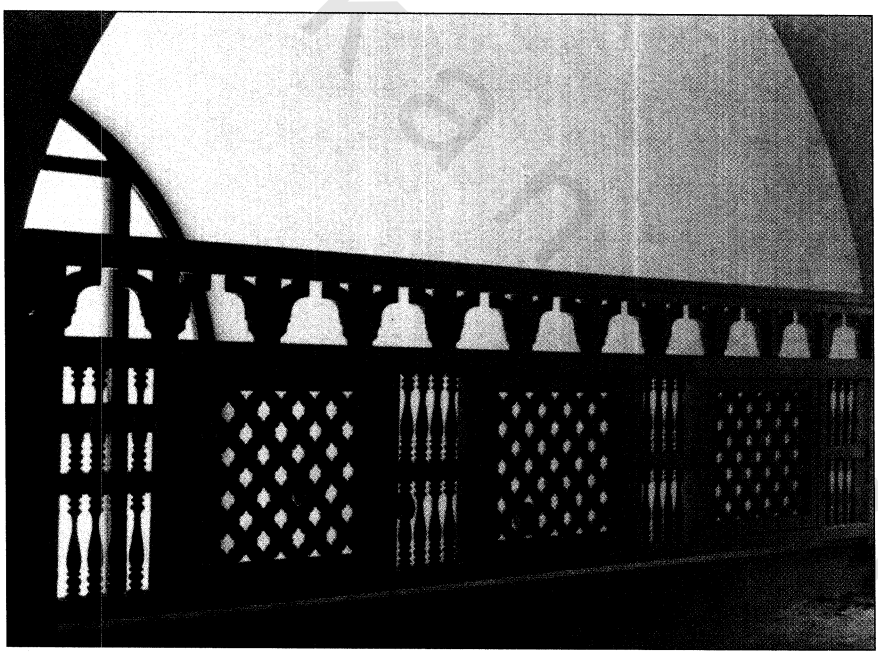

قمة التعبير عن الخرط البلدي ممثلاً في درابزين مبنى إداري حديث.

شكل (١)

دقة وروعة الحشوات الهندسية الشائعة في التراث، والجديد فيها هو اختيار المقطع الهندسي منها، ويعلوها الحفر على الخشب النابع من التراث.
(شكل (٢)

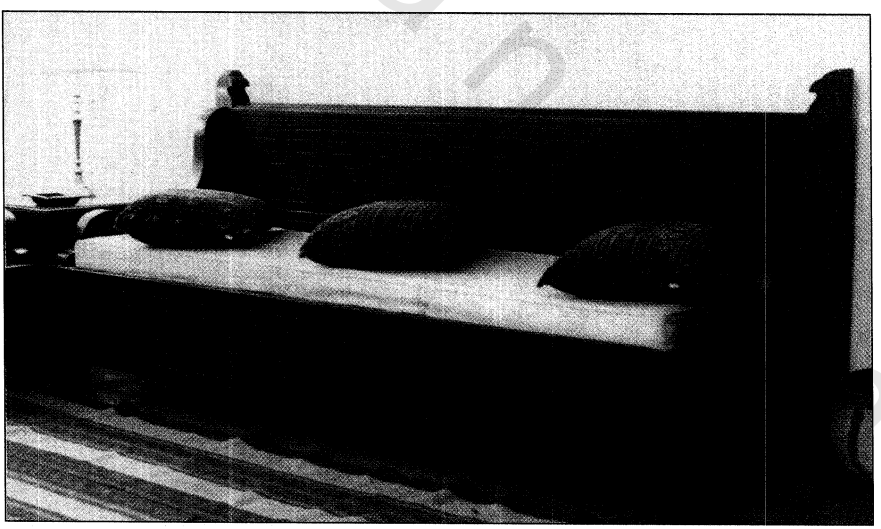

حشوات هندسية منتظمة، لها أصول في بداياتها ونهاياتها، مع اختيار نصف العروسة كنهاية لقائم الظهر، ومعالجته لينسجم مع المخدع الممثل لشكل أوزة رابضة.
شكل (٣)

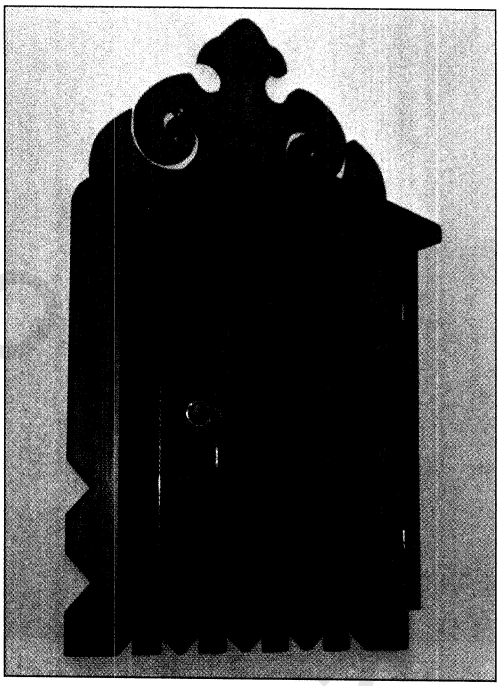

الأناقة في النجارة البلدي
متمثلة في صندوق بريد.

شكل (٤)

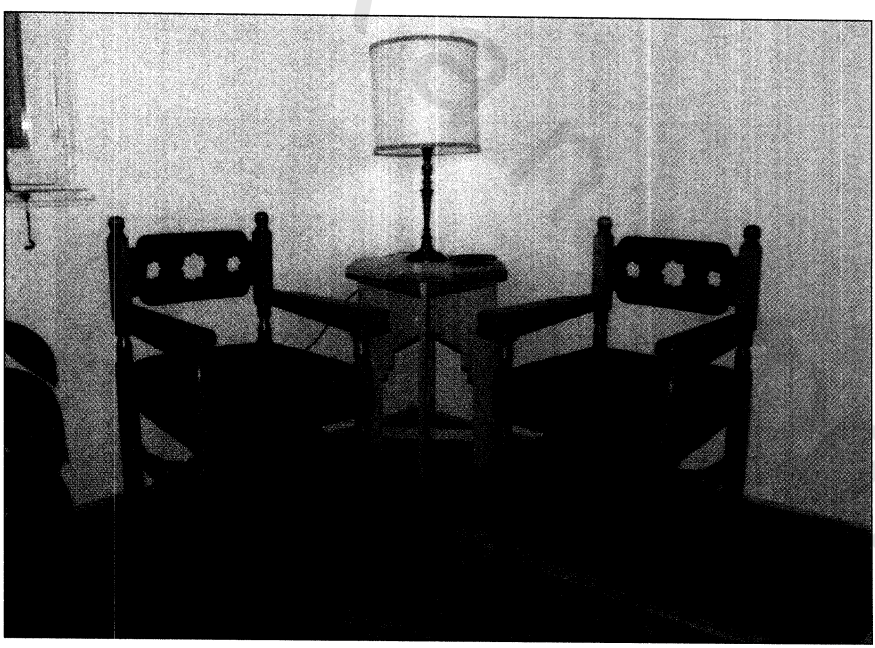

ركن للجلوس يمثل النجارة السويسي.

شكل (٥)

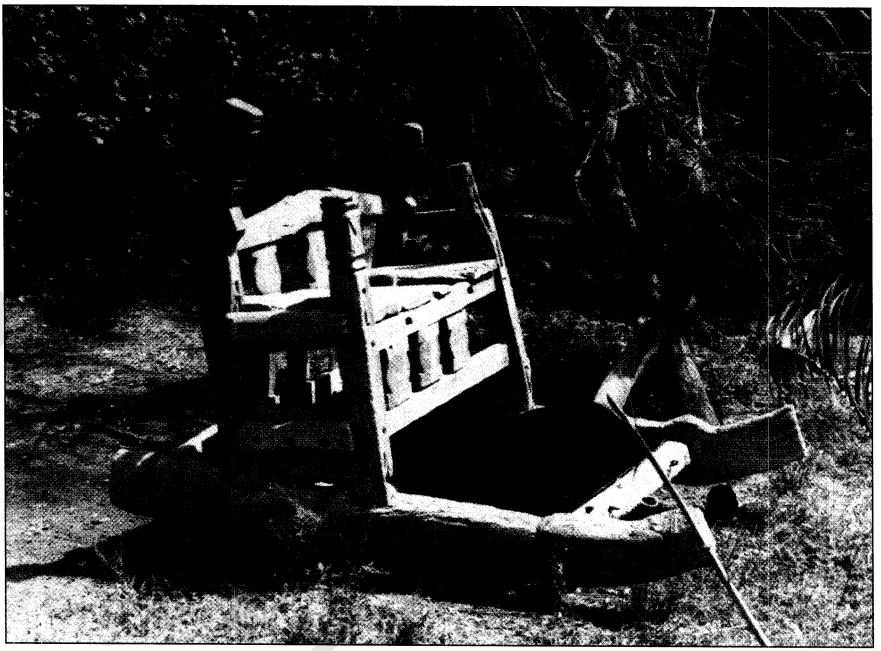

نورج تحول إلى قطعة متحفية يمثل قيمة النجارة الريفي.

شكل (٦)

لقد أصبحت الحالة ملحة الآن لتأكيد الشخصية المصرية بعد حالة الفوضى واللاإنتماء التي يمر بها الذوق العام في الفترة المعاصرة، من عمارة متأرجحة هدفها الربح التجاري السريع، إلى عمارة داخلية تكشف عن فقر ثقافي، وعدم إنتماء إلى الجذور التاريخية لبلد المنشأ. ولقد مسّ هذا الإحساس تفكير بعض الأبناء المخلصين لهذا الوطن؛ فبدأ بعضهم ـ وبدون اتفاق مسبق أو أمر صادر لهم ـ بمحاولات لتأكيد الشخصية المصرية، عنصرها الأساسي وجهة النظر الشخصية، وبعضها التشييد للهيكل الحضاري على أساس تاريخي...

وأثبتت هذه المحاولة قوتها، وأكدت وجودها حتى إن كثيرًا من المعارضين لهم، والمؤيدين للفكر والشخصية الغربية، ساروا في هذا الركاب باعتبار أن ما يحدث ما هو إلا موجة وموضة للفترة الحالية، فلم لا يسيرون في ركابها؟؟ سعيًا وراء النجومية والربح السريع. وحتمًا فإني أتوقع لهؤلاء السقوط السريع بعد ظهور أول موضة جديدة ـ مع استمرار

البقاء للمخلصين الجادين في بحثهم وتطويرهم لأصول بلدهم في قالب معاصر حديث.

وهذه محاولة مني متواضعة، وبرؤيتي الشخصية البحتة؛ لإبداء الرأي بطريقة عملية، بعد بحثي في التاريخ، وتحيزي لفترة تاريخية بعينها، ثم تطبيق الرأي الذي وصلت إليه، ولم أكتف بالبحث التاريخي كزمان فقط، فقد لجأت إلى المسح للحاضر كمكان، وكم امتلأت سعادة حينما وجدت أماكن بأرجاء مصر أكثر فكرًا حضاريًا، وتمسكًا بقيم الإنتماء والجذور التاريخية، في الواحات كواحة سيوة، والواحات البحرية، والفرافرة، والواحات الخارجة، وقرية بشندي، وبلاط، والقصر وموط، وكذا مدينة رشيد، وفوّه، وغيرها... ففي معظم هذه الأماكن ما زال هناك بقية تربطنا بأصالة جذورنا التاريخية - وهناك كنوز تاريخية تطلب منا العمل على كشفها بجدية وإخلاص وإصرار.

* * *